'البنتاغون يدس رأسه في رمال الأفغان' *

14-4-2004

مجلة نيويوركر: عدد: 19-04-2004 - 26

وقد عادت أفغانستان تستحوذ على اهتمام إدارة بوش لأنها تريد نجاحاً سياسياً خارجياً في وجه الحالة المتأزمة في العراق.. ويقول مسئولون من الاستخبارات ووزارة الخارجية إنه من المفهوم تماماً الآن أنه لابد من عقد الانتخابات الرئاسية والبرلمانية في أفغانستان، قبل الانتخابات الرئاسية الأميركية يوم 2 نوفمبر المقبل، والالتزام بهذا الجدول السياسي أصبح التزاماً جديداً بالنسبة لصناديق إعادة الاعمار الأميركية في أفغانستان.

بقلم سيمور هيرش

مضى عام ونصف العام على الحرب ضد أفغانستان، ولا تزال طالبان قوة موجودة في أنحاء عديدة تواصل توفير ملاذ آمن لمقاتلي القاعدة. أما القوات الأميركية الموجودة هناك، وقوامها حوالي عشرة آلاف جندي أميركي، فتنتشر بكثافة في المناطق الجبلية قرب باكستان وتواصل مطاردتها لأسامة بن لادن والملا محمد عمر، زعيم طالبان. أما حامد قرضاي، الرئيس الأفغاني المدعوم أميركياً، فلا يمارس سوى قدرا محدودا من السلطة السياسية خارج العاصمة الأفغانية، كابول، ويبذل جهوداً مضنية لتقليص نفوذ أمراء الحرب المحلية الذين يسيطرون على مناطق الريف فعلاً.

وإنتاج الهيروين يواصل زخمه، والناس خارج المدن لا يزالون ضحايا العنف والجريمة.

ويفيد تقرير حديث نشره برنامج الأمم المتحدة للتنمية عشية انعقاد مؤتمر دولي للمساعدات لأفغانستان في برلين مؤخرا، أن أفغانستان أصبحت الآن عرضة لأن تصبح من جديد "أرضاً لتفريخ الإرهاب" إن لم تشهد زيادة كبيرة في المساعدات التنموية.

الفوضى الأفغانية أصبحت قضية سياسية بالنسبة لإدارة بوش، التي تواجه إدارتها للحرب على "الإرهاب" تحدياً علنياً من جانب ريتشارد كلارك مستشار الإرهاب السابق لمجلس الأمن القومي بعد كتابه "ضد كل الأعداء" الذي نشره مؤخراً، وكشف عنه في جلسات استماع مثيرة أمام لجنة التحقيق في أحداث 11 سبتمبر.

ومع ذلك تواصل إدارة بوش استخدامها لأفغانستان كدليل على نجاحها ومثال على مضاء عزم الرئيس الأميركي، على الرغم من الإنذارات المتكررة من جانب المنظمات الدولية والحلفاء ومن داخل المؤسسة العسكرية نفسها، وخاصة التقرير الذي كلف البنتاغون بإعداده ولكنه أبقي داخل درج المكاتب حيث تبينت نتائجه السلبية بأن الحالة هناك تتدهور بسرعة كبيرة.

يصف كلارك في كتابه النصر في أفغانستان بأنه أبعد ما يكون عن الحسم، كما ينتقد بحدة تكتيكات البنتاغون وخاصة قرار الاعتماد على القوات الجوية، وليس القوات البرية

في الأسابيع الأولى من الحرب. ويقول إن الحرب بدأت في 7 أكتوبر 2001 ومع ذلك انتظرت الولايات المتحدة سبعة أسابيع قبل أن تدخل وحدة برية من قوات مشاة البحرية للاستيلاء على موقع سابق لطالبان والقاعدة..وهذه المحاولة في أواخر نوفمبر لم تشهد بذل أي جهد من جانب القوة البرية الأميركية لإغلاق الحدود مع باكستان واصطياد قيادة القاعدة أو قطع طريق الهرب على مقاتليها.
وقد أخبرني كلارك في مقابلة معه، قبل أيام، بأن الإدارة الأميركية نظرت إلى أفغانستان باعتبارها منطقة خلفية عسكرياً وسياسيا تمهد الطريق إلى العراق بانتظار الحرب الأكثر أهمية بالنسبة لبوش.، وقال إنه والعديد من زملائه قد حذروا قيادة الأمن القومي مراراً بالقول "إنكم لن تربحوا الحرب في أفغانستان بمثل هذا المجهود الحربي الضئيل".
ويرجع كلارك عدم إصغاء الرئيس الأميركي وفريقه لهذه التحذيرات إلى ثلاثة أسباب: "الأول، هو أنهم لم يريدوا أن يتورطوا في أفغانستان على النحو الذي تورطت فيه روسيا. الثاني، كانوا يوفرون القوات لاستخدامها لاحقاً في العراق.

والثالث، هو أن رامسفيلد أراد من أفغانستان أن تكون حقل اختبار يثبت فيه نظريته حول قدرة أعداد صغيرة من القوات البرية مدعومة بقوة جوية على تحقيق النصر في معارك حاسمة". وحتى اليوم لم تتمكن القوات الأميركية من تحقيق الهدوء عدا في مدينتين أو ثلاث مدن فقط. أما الرئيس الأفغاني فهو ليس أكثر من عمدة لكابول.
وجهة نظر كلارك عن الأخطاء في أفغانستان تعززها دراسة عسكرية داخلية من حرب أفغانستان انتهى إعدادها خلال الشتاء الماضي. ففي أواخر 2002، طلب مكتب العمليات الخاصة في وزارة الدفاع من الكولونيل المتقاعد في الجيش الأميركي هاي روثشتاين الخبير في الحرب غير التقليدية أن يجري دراسة عن تخطيط وتنفيذ حرب أفغانستان مع التركيز على القوات الخاصة، وكان التقرير الذي أعده بعد السفر إلى أفغانستان واللقاء بالجنود هناك يمثل نقداً مدمراً لاستراتيجية الإدارة الأميركية. حيث يقول إن حملة القصف الجوي لم تكن الطريقة الأفضل للقضاء على أسامة بن لادن وباقي قيادة القاعدة وإنها فشلت في تحويل النجاحات التكتيكية الأولية إلى نصر استراتيجي. وفي الحقيقة فإن النصر في أفغانستان، كما يقول في تقريره، لم يكن البعيد نصراً استراتيجيا أبداً.
في الشهر الماضي، زرت روثشتاين في مكتبه بكلية الدراسات العليا البحرية في كاليفورنيا، حيث يحاضر في التحليل الدفاعي. قضى روثشتاين أكثر من 20 عاماً في القوات الخاصة في الجيش الأميركي، بينها ثلاث سنوات عمل خلالها مديراً لعمليات التخطيط والمناورات في قيادة العمليات الخاصة المشتركة قبل تقاعده عام 1999.
يمثل التقرير فجوة عميقة بين الطريقة التي يتحدث بها وزير الدفاع دونالد رامسفيلد عن الحرب وبين ما يحدث على أرض الواقع فعلاً. يقول روثشتاين إن رامسفيلد قال في بداية قصف أفغانستان: "إنه من غير الممكن محاربة الإرهابيين بالقدرات العسكرية التقليدية، بل بالقدرات غير التقليدية".
في ديسمبر، تراجعت طالبان والقاعدة مع تقدم قوات التحالف الشمالي المدعومة بالقوة الجوية والقوات الخاصة الأميركية. ومع ذلك واصلت الولايات المتحدة، كما يقول،

التأكيد على القوات الجوية والحرب التقليدية على الرغم من أن "الحرب في تلك المرحلة أصبحت غير تقليدية على نحو متزايد مع قوات طالبان والقاعدة التي أخذت تقاتل بخلايا صغيرة، حيث تكتفي بزرع الألغام الأرضية وشن هجمات ليلية بالصواريخ، قبل أن تختفي تحت جناح الليل".
ويقول في تقريره: "ما كان مطلوباً بعد ديسمبر 2001 هو تركيز أكبر على قوات العمليات الخاصة ودعمها بقوات مشاة خفيفة والقيام بعمليات مقاومة لحرب العصابات، وكان يجب التقليص الشديد للعمليات الجوية.. إن عدم تعديل العمليات الأميركية بحيث تتلاءم مع التغيير الميداني بعد سقوط طالبان جعل الولايات المتحدة تخسر بعضاً من ثمار الحرب وتسبب بمشكلات إنسانية وتدهور الاستقرار على الرغم من إمكانية تجنبها.. إن نتائج الحرب التي لا يجري الحديث عنها قد تكون بالفعل أكبر مما نعتقد". وبنهاية عام 2001، أصبحت حرب أفغانستان بشكل جوهري حرباً مضادة لحرب العصابات، وهنا وعن كان من المهم جداً تبني شكل محدد من أشكال الحرب غير التقليدية. يقول روثشتاين في تقريره: "إن القوات الخاصة موجودة للقيام بالتعامل مع هذا النوع من العدو تحديداً". "التفكير المنفتح والاعتماد على الفهم العميق للحرب والطبيعة السكانية والبشرية والثقافية والتقنية هي جزء من هذه المقاربة للحرب.. الحرب غير التقليدية تقول إن جنود القوات الخاصة يجب أن يكونوا دبلوماسيين وأطباء وجواسيس وعلى معرفة بالثقافة وأصدقاء جيدين قبل أن يكونوا مستعدين للقيام بعملهم الأساسي".
وبدلاً من ذلك فإن "شكل القيادة كان عبارة عن بنية ضخمة ومعقدة لم تستطع (أو لم تعمل على) التكيف مع الواقع غير التقليدي الجديد". والنتيجة كانت "حملة في أفغانستان قضت على حكومة طالبان بالفعل لكنها فشلت في تحقيق الهدف السياسي الرئيسي وهو ضمان عدم قدرة القاعدة نهائياً مستقبلاً على العمل داخل أفغانستان".

ويضيف روثشتاين بأن رامسفيلد كان يرد دوماً على الانتقادات بشأن الخسائر البشرية بين المدنيين الأفغان بالقول إن "بعض" الأضرار الكبيرة "هي حتمية في الحرب"، وتقدر التقارير أن أكثر من ألف أفغاني مدني قد قتلوا نتيجة القصف الجوي وغيرها من العمليات في المراحل الأولى من الحرب، ويقول روثشتاين أن هذا الرقم كان يمكن تخفيضه وإن حوادث أخرى كان يمكن تجنبها لو سمح للقوات الخاصة أن تقوم بحرب غير تقليدية تقلص الاعتماد على القوة النارية الهائلة، ويضيف قائلا: "إن الحملة العسكرية الأميركية أوجدت فراغاً في السلطة، كما أن الظروف التي أرست فيها حكومة ما بعد طالبان منحت زعامات الحرب والعصابات وإنتاج الأفيون مرحلة جديدة من الحياة".
ويختتم قائلاً إن "هزيمة عدو على أرض المعركة وكسب الحرب هما أمران متوازيان نادراً، فكسب الحرب يحتاج أكثر من هزيمة العدو في معركة".
وقدم روثشتاين تقريره هذا للبنتاغون في يناير الماضي، غير أنه أعيد له مرفقاً برسالة تطلب منه تلخيصه بشدة وتخفيف حدة استنتاجاته، ولم يتصل به أحد بعد ذلك، يقول لي أحد المستشارين العسكريين: "إنه تقرير تهديدي".
ويبقى الهيروين من أخطر المشكلات، حيث يفيد تقرير أعده مكتب الأمم المتحدة للمخدرات والجريمة أن 3,2 مليار دولار كانت عوائد تجارة المخدرات في أفغانستان

العام الماضي، أي ما يعادل ضعف إجمالي الناتج المحلي للبلاد، ويفيد تقرير آخر نشرته الأمم المتحدة العام الماضي أن طالبان نجحت في خفض إنتاج الأفيون عام 2001 إلى 85 طناً فقط، لكن الرقم عاود الارتفاع العام الماضي إلى 3600 طن، أي 20 ضعفاً، في ظل الاحتلال الأميركي للبلاد.
ويفيد تقرير الأمم المتحدة أن 70 في المائة من مزارعي الخشخاش يستعدون لزيادة إنتاج الخشخاش هذا العام، ومعظمهم إلى أكثر من النصف.
هذه الأرقام المرعبة لا يبدو أنها تزعج الأميركيين الذين يديرون وجوههم عنها نحو زعامات الحرب لاعتقادهم بأن هؤلاء سيقدمون لهم في النهاية طالبان والقاعدة. يقول أحد المسئولين في إحدى المنظمات غير الحكومية: "الكل يعرف أن القوات المسلحة الأميركية تدفع مبالغ دورية لزعماء الحرب من تجار المخدرات، لقد أعدناهم للسلطة من جديد، والأمر يسير في منحى خاطئ بشكل مخيف". ويقول مساعد وزير الدفاع جوزيف كولينز إن محصول هذا العام يتوقع أن يكون ثاني أكبر محصول يتم تحقيقه حتى الآن، ليس هذا فحسب، فزعماء جماعات إنتاج المخدرات كانوا ينتجون الحشيش فقط داخل الحدود الأفغانية في العادة ويشحنون الأفيون إلى مصانع إنتاج الهيروين في شمال باكستان وغيرها. غير أن مسئولاً رفيعاً في الأمم المتحدة أخبرني بأنه في العامين الماضيين أصبح: معظم الهيروين ينتج داخل أفغانستان لتحقيق مزيد من الأرباح، وهذا التزايد في الإنتاج سيؤدي إلى تزايد الإدمان على الهيروين بين الجنود الأميركيين.
وأخبرني العديد من مسئولي الاستخبارات عن تزايد كبير في معدلات الإدمان على الهيروين المتوفر بسهولة بين القوات الأميركية وأن الاستخبارات بدأت تحقيقات بهذا الشأن. غير أن البنتاغون لا تزال "تخفي رأسها في الرمل" كما يذكر مسئول سابق كبير في الاستخبارات الأميركية..
وقد عادت أفغانستان تستحوذ على اهتمام إدارة بوش لأنها تريد نجاحاً سياسياً خارجياً في وجه الحالة المتأزمة في العراق.. ويقول مسئولون من الاستخبارات ووزارة الخارجية ممن عملوا في كابول إنه من المفهوم تماماً الآن أنه لابد من عقد الانتخابات الرئاسية والبرلمانية في أفغانستان، قبل الانتخابات الرئاسية الأميركية يوم 2 نوفمبر المقبل، والالتزام بهذا الجدول السياسي أصبح التزاماً جديداً بالنسبة لصناديق إعادة الاعمار الأميركية في أفغانستان.
يقول كلارك في كتابه "ضد كل الأعداء" إن أموال المعونات كانت "غير كافية في البداية ويجري تقديمها ببطء" وتقل كثيراً عن 3090 دولاراً للفرد التي أنفقت في العام الأول من جهود الاعمار في البوسنة وعن 20 مليار دولار المخصصة الآن للعراق. في عام 2002 انخفضت المعونات الأميركية في إحدى المراحل إلى مجرد 52 دولاراً للفرد.
وبإصرار الإدارة الأميركية على إجراء الانتخابات في الخريف المقبل، فإنها تتجاهل نصائح حلفائها، وتواصل الاعتماد إلى حد كبير على حامد قرضاي "حتى الشهر الماضي لم يتجاوز عدد الناخبين المسجلين 10 في المائة ممن يحق لهم التصويت"، وقبل أيام تعهد المؤتمر الدولي في برلين بدعم نظام قرضاي وانتخاباته بوعده بتوفير أكثر من 4 مليارات دولار مساعدات وقروض منخفضة التكلفة في العام المقبل، ونصف هذا الإسهام أتى من جانب إدارة بوش.

وتواصل اعتماد الولايات المتحدة على زعماء الحرب في أفغانستان، مثل وزير الدفاع محمد فهيم، والجنرال رشيد دستم وهو مجرم حرب سابق ومهرب أسلحة ساهم في هزيمة طالبان في خريف 2001 بعد أن حصل على ملايين الدولارات من واشنطن، ويثير هذا الاعتماد حيرة الكثيرين من أصحاب الخبرة الطويلة في أفغانستان. يقول ميلت بيردين، الذي أدار عمليات "السي آي أيه" في أفغانستان خلال الغزو السوفييتي: "فهيم ودستم جزء من المشكلة وليسا خبراء في الحل، إن أمثال هؤلاء لديهم الخبرة في توريطنا في حروبهم التي يخوضونها مع بعضهم والمقاتلة نيابة عنهم، إنهم يقودوننا في هذا الطريق، كم يعجبهم أن نقضي على أعدائهم بالطائرات والقوات الخاصة الأميركية".

أما الورقة الأقوى في التخطيط للانتخابات فربما تكون طالبان نفسها. فوزير خارجية طالبان السابق وكيل أحمد متوكل الذي أمضى شهوراً وهو معتقل لدى الأميركيين قد كرر عرضه فتح قناة حوار مع قيادة طالبان.

وفي غضون ذلك يتزايد نفوذ طالبان في جنوب وشرق أفغانستان ويتفاقم تحديها ربما بسبب الهجمات الجوية والبرية الأميركية المتواصلة، والتي توقع، بالقطع قتلى في صفوف المدنيين.

* العنوان من وضع هيئة تحرير مجلة العصر